القدس في الفكر الصهيوني والأميركي

إعداد: أ. د. هدى درويش

القدس هي تلك المدينة العريقة التي لها مكانتها الاستراتيجية والحضارية بين بقاع العالم، فهي مهد الرسالات السماوية، ومهبط الوحي ومكان مدفن الأنبياء، ومركز صلاتهم، فمنذ القدم كانت مطمعاً لتنافس مختلف الإمبراطوريات من يونانية ورومانية وفارسية، مروراً بالتتار والصليبيين في القرون الوسطى حتى الاحتلال الحديث الذي تواجهه حتى الآن من جانب الكيان الصهيوني.

والإشكالية التي نواجهها في تلك البلد المقدسة هي تلك العنصرية والرغبة في السيطرة والتملك من جانب جماعات يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار.

وموضوعنا هنا هو القدس من وجهة نظر الآخر المتمثل في الكيان الصهيوني والولايات المتحدة الأميركية.

فبينما يذكر الكاتب اليهودي ألفريد لينتال: «إن الكنعانيين هم أول من جاء إلى فلسطين ثم تتالت بعدهم القبائل العربية ثم القبائل العبرية»، تزعم الصهيونية أن اليهود قدياً هم مَن أسسوا مدينة أورشليم (القدس)، غير أن الثابت علمياً أن اسم أورشليم مأخوذ من لغة الكنعانيين العرب وهو مركب من كلمتين كنعانيتين (يورى) ومعناها مدينة و(شليم) وهو

اسم إله كان الكنعانيون يعبدونه ومعناه السلام، وكانت مركزاً لعبادة الكنعانيين أول من سكنوا تلك البلاد.

والقدس عربية الأصل والنشأة والتكوين، فعلى طول الخريطة المديدة لتاريخ القدس، لم يكن لدى اليهود غير علاقة عارضة بهذه المدينة العريقة.

والجدير بالذكر أن أقدم اسم لفلسطين هو (أرض كنعان)، حيث جاء في حفريات تل العمارنة – التي يرجع عصرها إلى خمسة عشر قرناً قبل الميلاد – أن كنعان هي تلك البلاد الواقعة غربي نهر الأردن.

وكنعان هو ذلك الاسم الذي تذكره التوراة لهذه البلاد، وهو ما يعدّ اعترافاً من التوراة بأن فلسطين ليست بلادهم، ولم تذكر التوراة أن اليهود هم مؤسسو القدس، وإنما جاؤوا إليها في الغزوة التي قام بها يوشع بن نون للمنطقة، حيث لم يدم الوجود اليهودي فيها أكثر من سبعين عاماً!

فالقدس في الفكر الصهيوني تمثل المركز والعاصمة التي لا يمكن للإله أن يستقر أو يُعْبَدَ إلا فيها لأنه كما جاء في سفر المزامير (132:13) أن «الرّب اختار صهيون واشتهاها مسكناً له». وتشير كلمة «صهيون» في التراث الديني اليهودي إلى جبل صهيون الذي يقع غرب القدس.

والواقع فإن العودة إلى صهيون هي فكرة محورية في النسق الديني اليهودي، إذ إن أتباع هذه العقيدة يرون أن المسيح المخلِّص سيأتي في آخر الأيام ليقود شعبه إلى صهيون (الأرض – العاصمة) التي سيحكم العالم منها ليسود العدل والرخاء (حسب زعمهم).

وتقوم الصهيونية على فكرة قداسة الأرض، وخاصة القدس باعتبارها الأرض النقية الوحيدة التي يكون فيها الوحي المقدس، أما خارجها فيكون مشوّشاً وملوثاً وغير نقي. ويربط صهاينة اليهود الأرض المقدسة بالشعب المقدس ويسمونها الأرض الموعودة وأرض الرّبّ، وقد سُمّيت في سفر زكريا «بالأرض المختارة» التي اختارها الرّب ومعه شعبه المختار.

كذلك يزعمون أن القدس عند الإله أثمن من السماوات والأرض، وأن الرّب اختار «أورشليم» لنفسه وأطلقوا عليها «مدينة الرّب» لأنهم يعتقدون أنها ستكون سكن الإله في آخر الأيام.

أما الصخرة المشرفة، فيضفي التلمود عليها هالة من القداسة والتعظيم، حيث جاء فيه أنّ «الله بدأ خلق الأرض من تلك الصخرة، وأنها حجر الأساس للأرض» ويذكرون أنها كانت ملكاً لليبوسي «أرونا» ثم اشتراها منه داود عليه السلام، وجعل عليها معبداً لله تعالى – حسب زعمهم.

وكذلك حائط البراق فهو ذلك الجزء من الحرم الشريف الذي يعد تاريخيّاً ملكية خاصة بالمسلمين طبقاً لتقرير الهيئة العالمية التي تشكلت وقت الانتداب البريطاني على فلسطين في عام 1930م والذي أعيد تأكيده في 23 فبراير/ شباط 1968م برقم (18427) بعد احتلال إسرائيل لفلسطين، ونظراً لسماحة الإسلام، فقد تم تقنين عادة الصلاة عند الحائط خلال الحكم العثماني وخاصة خلال القرن 16 على يد سليمان القانوني، كما أن عادة البكاء عند الحائط تم تقنينها خلال الحكم المصري للشام في ثلاثينيات القرن 19، حيث تطور الأمر إلى زعمهم بأن حجارة هذا الجدار أخذت من هيكل سليمان مما يلزم البكاء عنده حزناً على الهيكل، وقد تجرؤوا على حرمته بأن قاموا بتغيير مسماه إلى حائط المبكى.

ولم تتحدث مصادر التاريخ الإسلامي عن المزاعم اليهودية حول الحائط، ولا عن زيارتهم له، كما لم نجد حديثاً عما يسمى (حائط المبكى) أو (الحائط الغربي) وهما اسمان لم يظهرا إلا في رحلات الأوروبيين فيما بعد، ويؤكد ما تقدم أن الرحالة ناصر خسرو، الذي قام بزيارة القدس في سنة 438هـ لم يذكر مبكى لليهود، ولم يشر إلى بكائهم عنده، ولم يشر إلى ذلك الإمام الغزالي رحمه الله وقد زار القدس وأقام فيها نحو سنة، كما أن الراهب الألماني (فلكس فابري) لمّا قام بزيارة القدس عام 1484م قام بتدوين رحلته بالتفصيل ولم يذكر فيها ما يسمى حائط المبكى أو بكاء اليهود عنده.

أما فيما يختص بالهيكل فيزعمون أنه أسفل المسجد الأقصى، وأنه بُني وسط القدس، وأنه بمنزلة سرّة العالم والنقطة التي عندها خلق الإله العالم، وأنه كنز الإله مثل جماعة يسرائيل، بل يزعمون أن الإله قرر بناء الهيكل قبل خلق الكون نفسه.

وجدير بالذكر أن نؤكد على أنه لم يبق في أرض المسجد الأقصى حجر واحد مما بناه سليمان عليه السلام، لأن الهيكل الذي بناه انهدم واحترق، ونقلت حجارته بعد موته بثلاثة قرون عندما غزا نبوخذ نصر (605– 562 ق.م) مدينة القدس سنة 589 ق.م. كما أن تيطس في عام 70م أحرق المعبد الذي بناه هيرودوس سنة 20 ق.م ورمى بحجارته بعيداً. أما يوسيفوس المؤرخ اليهودي فقد وصف القدس ولم يذكر شيئاً عن الهيكل، وهذا يعني أن

الهيكل الذي دمّره تيطوس سنة 70م لم تقم له قائمة بعد ذلك، ومنذ سنة 135م إلى الفتح الإسلامي لم يكن يسمح لليهود بالإقامة في القدس.

وإذا انتقلنا إلى الواقع الجديد بعد وعد بلفور 1917م والتطورات التي حدثت في المنطقة حتى العصر الحالي نجد أنه تفعيلٌ لفكرة الاستيطان والسيطرة على مدينة القدس، اتخذت الصهيونية كثيراً من الآليات، أولها التغيير الديموغرافي في المنطقة ببذل الجهود وتذليل كل العقبات من دعم مالي وترويج إعلامي لتهجير اليهود إلى القدس، وفي الوقت نفسه التضييق على العرب بشتى الطرق، ومنها – عزل سكان القدس من العرب الفلسطينيين عن ذويهم في الضفة الغربية، ومنعهم من التوسع العمراني وحرمانهم من الخدمات الضرورية كالكهرباء والغاز وغيرها، كل ذلك إلى جانب طرد العرب والاستيلاء على أراضيهم ومساكنهم.

وقد قام صهاينة اليهود بإنشاء مستوطنات لتحيط بالقدس على شكل دائرة مرسومة بإحكام على أطرافها للضغط على العرب داخلها، ومن لا يخرج منها بالتهجير الطوعي؛ فهو واقع لا محالة تحت نير التهجير القسري بالتجريف للأراضي، والإزالة للمباني، وإحلال المستوطنات، حتى ولو في صورة كانتونات استيطانية صغيرة تفصل بين الفلسطينيين تمهيداً لتوسيع تلك المستوطنات ومحو الوجود العربي فيها. حيث يخططون لإنهاء الوجود العربي في القدس بحلول عام 2020م، وكذلك محو الهوية العربية واللغوية، واعتبار القدس مدينة صهيونية كاملة وعاصمة أبدية لإسرائيل.

ومنذ عقود طويلة يسعى الكيان الصهيوني لتفعيل فكرة نقل السفارة الأميركية إلى القدس حتى أصبح ذلك واقعاً، حيث استغل اليهود الصهاينة تحولات المشهد العربي وحالة الانقسام الفلسطيني لتمرير مخططاتهم بتصعيد وتيرة الهدم والاستيطان ومصادرة مزيد من الأراضي والعقارات والمحال التجارية في المدينة المقدسة بما يعني تهويد المنطقة بأكملها.

وإذا نظرنا إلى الآخر الأميركي الداعم للصهيونية وزعمه في أحقية القدس لليهود، نجده يبذل الغالي والنفيس لنصرة الصهيونية، فما أسباب هذا الدعم ونتائجه؟

إن الدعم الأميركي للصهيونية جاء نتاجاً لأسس عقدية، حملها المؤمنون بتعاليم الكتاب المقدس تحقيقاً لنبوءاته التوراتية، وإيمانهم بوعد الله لشعبه المختار، وكذا عقيدتهم الراسخة في قدوم المسيح ليحررهم ويخلصهم من الخطيئة والإثم، ومثال على ذلك قيام جماعات

تنادي وتدعو لتثبيت هذه العقيدة، من أبرزها فرقة المورمونية المنتشرة في أنحاء الولايات المتحدة، الذين يعتقدون بضرورة إعادة جمع إسرائيل واستعادة الأسباط، ويؤمنون بأن صهيون هي أورشليم الجديدة، وأن المسيح سيسود الأرض لتكون متجددة ومجيدة. وهناك طوائف أخرى مثل الإنجيليين وشهود يهوه، والمتجددين، وطوائف البروتستانت، كان اعتمادها الأساس على التوراة في أحقية تملك إسرائيل للأرض.

وقد انطلق الداعون لعودة المسيح من التعلق بفكرة حتمية عودة اليهود إلى فلسطين لتعجيل النهاية والخلاص، وهؤلاء من أطلق عليهم (المسيحية الصهيونية) الذين ترفض معظم الكنائس المسيحية توجهاتهم من مختلف المذاهب في الشرق والغرب، بل واعتبرتهم خارج إطار المسيحية.

ويندرج مفهوم الصهيونية المسيحية تحت تأثير عقدي باعتبار أن القدس هي لليهود تحقيقاً لإرادة الله طبقاً لنبوءات الكتاب المقدس حول نهاية العالم والضرورة لعودة المسيح ثانية.

ولقد سيطرت هذه المسيحية الصهيونية – أو بمعنى أصح الاختراق الصهيوني للمسيحية على حد تعبير القس الأستاذ الدكتور إكرام لمعي – ويمكن القول إن غزو الصهيونية للتراث المسيحي جاء نتيجة لاحتواء الكتاب المقدس على العهدين معاً حتى أصبح تشجيع الصهيونية ومساعدتها هدفاً رئيساً لصانعي القرار في أميركا، وهي سمة عامة لم تتغير بتغير الشخصيات والرؤساء الأميركيين على مدى عقود طويلة.

والحقيقة فإن عدداً كبيراً من رؤساء أميركا ينتمون عقدياً وأيديولوجيّاً إلى المسيحية الصهيونية، منهم ويلسون – هاري ترومان – إيزنهاور – جونسون – نيكسون وجيمي كارتر الذي أعلن حين تولى الرئاسة أنه وُلد من جديد من أجل دعم الوجود الإسرائيلي في فلسطين، وكذلك رونالد ريغان وعائلة بوش الأب والابن، ثم بيل كلينتون الذي تمت في عهده الموافقة على نقل السفارة بشكل مرحلي إلى القدس، حتى جاء ترامب فحوّل الفكرة إلى واقع مرير بقراره التعسفي الذى أعلن فيه نقل السفارة الأميركية إلى القدس وجعلها عاصمة لإسرائيل.

والجدير بالذكر أن هناك منظمات ومؤسسات يهودية وصهيونية تنطلق من الولايات المتحدة، تقوم على تأكيد وتشجيع الصهيونية المسيحية مثل جمعية بناي بريث (أبناء العهد) والتي تنتشر فروعها في 45 دولة، ومنظمة إيباك (لجنة العلاقات العامة الأميركية – الإسرائيلية)،

والماسونية، وكلها تعمل على زرع الفتن والانقسامات بين شعوب منطقة الشرق الأوسط.

وفي النهاية، فإن الحقيقة التي لا مناص منها، هي أن تهويد القدس وإقامة المستوطنات الحالية تراث تراكمي قام على توظيف الدين لخدمة أهداف توسعية صهيونية، ومقدمات أصولية بروتستانتية بريطانية أميركية، ظهرت على الساحة منذ وعد بلفور 1917م، حتى قرار الرئيس الأميركي ترامب 2017م – مائة عام– تخللتها شخصيات ومنظمات ومؤسسات دينية وإعلامية وسياسية – وتجمعات عاشت على الكثير من الخرافات والتزييف والتحريف، لا علاقة لها بالدين أو التاريخ أو السياسة، لتعطي حقّاً لشعب بلا أرض ولا تاريخ.

والواجب على المسلمين حاليّاً هو سرعة إنجاز المصالحة الفلسطينية، ذلك الانقسام الذي يصب في مصلحة إسرائيل، كما يجب العمل على إنشاء مراكز بحثية عربية علمية على غرار مراكز البحث الإسرائيلية بهدف مساعدة متّخذي القرار وصناعه بهدف وصول الحقيقة التاريخية للقدس إلى أنحاء العالم، وأيضاً العمل على بلورة خطاب عربي إسلامي وبلغات مختلفة باستخدام وسائل الاتصال والتكنولوجيا الحديثة لتأكيد عروبة القدس. مع ضرورة قيام مجموعات ضغط عربية وإسلامية في الولايات المتحدة وأوروبا لبلورة رأي عام مساند للقضايا العربية والإسلامية وخاصة قضية القدس. كذلك لابد من كشف المزاعم الصهيونية الدينية حول القدس ومحاولاتهم الظاهرة والمستترة من إجراءات تستهدف تهويد المدينة كمنع سلطات الاحتلال تراخيص بناء المنازل العربية، وهدم عشرات المنازل الخاصة بالعرب بحجة بنائها دون ترخيص، ومنها فرض قيود وتكاليف باهظة لمن يريد الحصول على هذه التراخيص.

كما يجب العمل على إثارة الوعي بخطورة المحاولات الصهيونية لتهويد القدس والاعتداء على حرمة المقدسات، خاصة السعي لهدم المسجد الأقصى وانتزاعه من المحيط العربي والإسلامي لفرض سياسة الأمر الواقع.